من الاسعاف والتمريض وجمعية العناية الصحّية الى البلديّة و"مينارة"...

ايلي الأعرج "يحارب" من ميدان الى ميدان دفاعا عن حقوق كلّ انسان

كتبت لارا سعد مراد

خلال المؤتمر الاقليمي الاول لشبكة مينارة

ليس غريبا على لبنان أن ينتج مبادرات انسانية في جميع المجالات، بسبب غياب الدور الرسمي في بلد تعوّد فيه المواطن على الغربة عن الدولة ومؤسساتها. وليس غريبا كذلك أن يبادر اللبناني الى تقديم المساعدة الى أخيه اللبناني أو أخيه الانسان بشكل عام تحت أي عنوان: الفقر، المرض، الادمان، التهميش أو تحت أي عنوان آخر من العناوين التي يعانيها الانسان في هذا البلد و»بالخط العريض»...

ولكن الجديد والصعب أن تجد مبادرة واحدة تحمل كل تلك العناوين معا، وتنجح في توحيد المعاناة والمساعدات والحلول من دون أن تفقد هويتها الانسانية.

ايلي الأعرج اسم وضع خطا أحمر تحت المعاناة، وحمل المشعل بيد يفتش عن الوجع لأنه واحد مهما اختلفت التسميات، والدواء باليد الأخرى لأنه واحد أيضا مهما كان الداء: وأول الدواء جرعة من الكرامة تعيد الى الانسان انسانيته قبل أن تعيد الى المتألم الراحة، لأن الكرامة المجروحة أشد ايلاما من أي مرض، ونزيفها يميت المجتمع غرقا بالدماء...

ولد ايلي الأعرج عام ١٩٦٠ في سن الفيل، متزوج وله ابنتان، لم يدخل العمل الانساني من شرفة القصر بل من الشارع، يوم كان الشارع مشرعا على كل أنواع القتال، كانت لعبة الحرب دائرة فدخل اللعبة قبل أن يحوّلها الى لعبة من نوع آخر ويحوّل اولاد الحرب الى فوج كشافة والبندقية الى مكبّر صوت ينادي بعبثية العنف.

واكتشف المناضل الفتيّ يوم تعرّض للأسر أن «مفهوم العداء لايرتبط لا بالانسان ولا بالله» واكتشف أيضا يوم انخرط في اسعافات الصليب الأحمر «أن أجساد جميع البشر تتعرض للاهتراء عند الموت بنفس الطريقة وأن الدّيدان التي تأكلها هي نفسها لا تميز بين جسد وآخر» فتعلّم منها عدم التمييز...

من باب الصليب الأحمر دخل الى دراسة التمريض في الجامعة اللبنانية وعمل ٣ سنوات في ما كان يسمى سابقا «معهد المعاقين-بيت شباب» قبل أن يعود ويلبي نداء التطوّع في الصليب الأحمر في عز حرب الجبل...

التمريض: مفهوم جديد

بفكر خبير التمريض كان المسعف المتطوع يعمل، فبرزت فكرة التمريض المنزلي لديه كحاجة ملحّة تحمل أكثر من هدف أبرزها تأمين خدمة المريض في بيئته وتخفيف فاتورة استشفائه، خلق مهنة تمريض مستقلة تنعكس استقلالية للممرّض أو الممرّضة، بالاضافة الى تخفيض الفاتورة الصحيّة على الجميع ومن بينهم الجهات الضامنة. وبناء عليه تمّ التعاقد مع مستشفى الحايك التي كانت تتضمن معهدا يخرّج مساعدي تمريض تسلّم الأعرج ادارته سنتين تمّ خلالها تدريب الخرّيجين على التمريض المنزلي، ومع بروز مشكلة عجز الناس عن تحمّل كلفة التمريض المنزلي ولدت «جمعية العناية الصحّيّة» كحلّ، عام ١٩٨٧ ونهضت بالفكر التمريضي من مستوى مجرد تقديم العلاج الى الوقاية والتثقيف الصحّي واشراك الأهل في الخدمة الصحّيّة.

كان وما زال هاجس التمريض والصحّة المجتمعية يسكن فكر ايلي

خلال اللقاء الاقليمي الاول للقادة الدينيين حول المناصرة والحد من مخاطر استخدام المخدرات

الأعرج فقام بدراسات عليا في الصحة المجتمعية في الجامعة اليسوعية بالاضافة الى مشاركات عدة في ورش تدريب في اوروبا، وكعضو في جمعية خرّيجي معاهد الصليب الأحمر كان ينادي بتنظيم مهنة التمريض، وكأمين سر اتحاد جمعيات التمريض طرح اسمه لرئاسة الاتحاد التي كانت تتم مداورة، ولكن هذا الطرح حالت دون تطبيقه فكرة وصول رجل الى رئاسة اتحاد غالبية العاملين فيه من الاناث، مما استدعى التجديد للسيدة سوسن عز الدين من جمعية المقاصد الاسلامية لولاية ثانية، كان خلالها الأعرج قد بلور فكرة انشاء نقابة الزامية للمهنة كمدخل للنهوض بها، وفي العام ٢٠٠٠ وصل الى رئاسة الاتحاد وبدأ العمل في هذا الاتجاه فتم تشكيل لجان عمل وتنظيم اليوم العالمي الأول للتمريض ضمن مؤتمر علمي ثقافي بالاضافة الى تنظيم أنشطة ومعارض خاصة وصولا الى العمل على برنامج وطني للتمريض في لبنان، وهو أمر لم يلق آذانا صاغية في البداية ولكن المثابرة والضغط أفضيا الى اقراره قانونا في كانون الأول من العام ٢٠٠٢ ، فتمت الدعوة الى الانتخابات وانتخب الأعرج أول نقيب مؤسس للنقابة الالزامية في مهنة التمريض.

ومن انجازات النقيب ترسيخ مفهوم العمل الديمقراطي الى جانب وضع النظام التأسيسي والنظام الداخلي وتنظيم الاشتراكات ونظام التقاعد والانتساب وغيرها من الأمور.

وخلال العمل كان الأعرج يؤكد على ضرورة تطبيق القوانين وبخاصة في ما يتعلق بالانتساب وحقوق الممرضين والممرضات، ولكن عدم الالتزام كان ومازال بالمرصاد سواء من جانب المستشفيات أو حتى الممرضين والممرضات أنفسهم. وفي هذا الاطار يسجّل الأعرج عتبا ويقول: «ما من مطلب لنقابتي المستشفيات والأطباء الا وكنا معهما جنبا الى جنب، وفي المقابل لم نر من قبلهما أي تفكير انساني لصالح حقوق الممرضين والممرضات، علما أنهم واجهة الخدمة الصحية وركيزتها والمفتاح الأساس لنجاح أي مستشفى». ويطلب من الممرضين والممرضات «الاستمرار في اعلاء الصوت لأنهم مظلومون لجهة الرواتب ودوامات العمل وغيرها من الأمور، فممنوع أن يتم النظر الى المهنة نظرة دونية بعد الآن»...

منارة "مينارة"

والنظرة الدونية الى الممرضين والممرضات التي حاربها الأعرج نقيبا حاربها كذلك مسعفا عندما كانت توجه الى أي جريح أو مريض ويحاربها اليوم كذلك عندما توجه الى متعاطي المخدرات أو الأشخاص المتعايشين مع فيروس نقص المناعة البشري ومرضى الايدز أو الاثنين معا، كمدير تنفيذي ل «شبكة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا للحد من مخاطر استخدام المخدرات» MENAHRA التي ولدت أيضا من الشارع، وكانت عام ١٩٩٦ مجرد فكرة تتعلق بالشباب ومخاطر الادمان، ثم أصبحت عملا خجولا على الأرض عام ١٩٩٩ بالتعاون مع الأمم المتحدة والبرنامج الوطني لمكافحة السيدا الى أن تحولت الى شبكة رسمية فاعلة تشكل منذ العام ٢٠٠٧ منارة مضيئة في أكثر من دولة.

فكرة الشبكة تقوم على الوقاية من الأمراض وبخاصة الايدز لدى الفئات الأكثر عرضة لها وهي: متعاطو المخدرات، عاملات الجنس التجاري، ومثليّو الجنس، والعمل يبدأ أولا باحترام هؤلاء الأشخاص وحقوقهم، وهي فكرة تمت محاربتها في البداية- كما يؤكد الأعرج - من منطلق اتهامها بالتشجيع على تعاطي المخدرات، قبل أن يتغلب المنطق ويتم فهم رسالة «مينارة». وفي هذا الاطار يقول الأعرج: «أثبت العلم أن المدمن هو مريض وليس مجرما وبناء على ذلك تعترف القوانين بحقوقه وتحميه من السجن، بالاضافة الى أن المدمن تعوّد أن تمتد له الأيادي بالضرب أو الاهانة مما يدفعه الى الغرق أكثر في ادمانه، أما يدنا التي

خلال اجتماع مع القادة الامنيين وصانعي القرار في الاردن خلال مهمة للمناصرة حول الحد من مخاطر استخدام المخدرات

خلال المؤتمر الثالث والعشرون للجمعية العالمية للحد من مخاطر استخدام المخدرات

تمتد له بالحماية تدفعه - كما أثبتت الدراسات - الى التفكير جديا في التخلص من الادمان. وأثبتت الدراسات كذلك أن ٩٠ الى ٩٥ بالمئة من المدمنين يجهلون امكانية العلاج ويخافون من السجن. وعملنا بدأ فعلا يؤتي ثماره ان لجهة الحث على التخلص من الادمان أو اعادة انخراط المدمن في المجتمع من خلال توفير التوعية والوقاية والابر النظيفة. بالاضافة الى العلاج البديل أي توفير علاج يؤخذ عن طريق الفم للمتعاطين حّل محل الابر وحّميه من مخاطرالايدز والجرعة الزائدة وهي المخاطر الأشد على المدمن وبالتالي على المجتمع. ويشكل العلاج بالبدائل الأفيونية علاجا بديلا للعلاج من السموم الكلاسيكي. ويفيد أولئك الذين لا يستطيعون أو لا يرغبون بالتوقف عن تعاطي المخدرات وقد حاز على موافقة وزارة الصحة». ويضيف الأعرج : «ان جزءا من حربنا هي ضد المجتمع الذي يدين الفرد ويصنّفه ويحكم عليه ويهمّشه وهي سلوكيات تضرّ ولا تنفع بل تزيد الطين بلّة».

«مينارة» هي الشبكة الأولى للحد من مخاطر استخدام المخدرات بواسطة الحقن في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ويغطي عملها ٢٠ دولة (أفغانستان، الجزائر، البحرين، مصر، ايران، العراق، الأردن، الكويت، لبنان، ليبيا، المغرب، عمان، باكستان، فلسطين، قطر، السعودية، سوريا، تونس، الامارات واليمن) . تقع أمانتها العامة في بيروت ومراكز التدريب والتوثيق الثلاثة تقع في ايران ولبنان والمغرب. أما مصدر التمويل الرئيس الحالي فهو الصندوق العالمي لمكافحة الايدز والسل والملاريا.

ما هو الحد من المخاطر؟

وفق «مينارة»، ان الحد من المخاطر هو «مجموعة من الاستراتيجيات غير المكلفة والتي يتم تنفيذها بسهولة من خلال السياسات والبرامج والممارسات، والتي تهدف الى الحد من الآثار السلبية لتعاطي المخدرات على الصحة والحالة الاجتماعية والاقتصادية لمستخدمي المخدرات». أما تدخلات الحد من المخاطر فهي تسعة رئيسية:

١ - برامج الابر والمحاقن
٢- العلاج البديل للأفيونيات وغيره من علاجات استخدام المخدرات
٣- الاختبار الطوعي والمشورة لفيروس نقص المناعة البشرية والتهابات الكبد الفيروسي
٤- العلاج المضاد للفيروسات القهقرية
٥-الوقاية والعلاج من الالتهابات المنقولة عن طريق الاتصال الجنسي غير المحمي
٦- برامج الواقي الذكري لمستخدمي المخدرات بالحقن وشركائهم الجنسيين
٧- المعلومات الهادفة والتوعية والتواصل لمستخدمي المخدرات بالحقن وشركائهم الجنسيين
٨- التلقيح والتشخيص والعلاج من التهاب الكبد الفيروسي
٩- الوقاية والتشخيص والعلاج من مرض السل.

مع النّاس...

ولد ايلي الأعرج ليكون مع الناس، مع كل من هو بحاجة. يجد نفسه مع المتألم مع المصاب بالسيدا مع من يعاني ويلات المخدرات. ويجد نفسه كذلك مع المهمّش أو المشرد الذي ينام في الشوارع أو تحت الجسور. ولمثل هؤلاء استحدث في مسقط رأسه سن الفيل مركزا يستقبلهم فيجدون طعاما ومأوى وغسالة لغسل الثياب وكنبة أوسريرا أو أي شيء يقيهم شر التشرد...وجد نفسه يوما عضوا في مجلس بلدية سن الفيل عام ١٩٩٨ ولكنه عاد واستقال قبل سنة من انتهاء ولايته لأنه عجز عن «مسايرة الأجواء وتلبية الطلبات غير المحقة»... فكرة الترشح للنيابة يرفضها رغم جهوزيته التامة لها وقدرته على تحمل مسؤولياتها «لأنها مكلفة ماديا ومعنويا: فاما أن ترهن مالك أو ترهن نفسك لتستمر. وهو أمر لا أستطيع أن ألبيه أبدا... أنا شخص معاد للطائفية أجد نفسي فعالا أكثر حيث أنا ضمن المجتمع المدني. بعيدا عن التعصب والتعصب المضاد اللذان ينظران الى أتباعهما كشقق مستأجرة والى المستقل كشقة برسم الايجار»...

ووسط هذه الأجواء ينظر الأعرج الى مستقبل لبنان نظرة شبه متشائمة وبخاصة في ظل الحروب العربية التي تحاصره. ولكنه في المقابل لا يخاف عليه لأنه باق ولكن «كما هو» بمعنى غياب أي دليل على تطوره سياسيا في المدى القريب على الأقل. «لأن الفساد يتآكله ولأن مفهوم المواطنة اختفى لصالح مفاهيم الطوائف. في عز الحرب كان زعماء الشوارع يتحاورون أما اليوم ورغم مظاهر السلام تجد الحوار مقطوعا».أما بوادر الحل فيراها في العودة الى «احترام أعظم قيمة حياتية وهي الانسان. والى حماية هذه القيمة من خلال ردّ حقوقها المسلوبة على جميع المستويات. وبناء الحس المجتمعي لأن المجتمع يكون في كثير من الأحيان الظالم الأكبر»...

وبعيدا عن الطائفية يحترم الأعرج جميع الأديان ولكن يبقى مثاله الأعلى يسوع المسيح. ويضع عمله في اطار الشهادة له. بالمفهوم الانساني الجامع. وله يشكو هموم الناس وأحيانا يفرغها في تراب بلدة بشلّي حيث ينكش الحقل قرب بيت ورثه حديثا ويزرع في أوقات الفراغ بعضا من خيرات الطبيعة. قبل أن يعود الى حقل العمل. حيث الأرض أشد وعورة. وحيث «الحصاد كثير أما الفعلة فقليلون»...

Hôpital Psychiatrique de la Croix

مستشفى الصليب
للامراض العقلية والنفسية

في مستشفى الصليب للأمراض العقلية والنفسية محترفات علاجية فنية متخصصة، Ateliers d'Art–Thérapie حيث يقوم المرضى بالرسم والتلوين واللصق. يشرف على المحترفات الفنية اختصاصيون في علم النفس وفي الفن التشكيلي، وهنالك قاعة للنشاطات الرياضية مجهزة بمعدات رياضية حديثة، يشرف عليها المدرب الرياضي الذي ينظم نشاطات مختلفة للمرضى. كما جهزت قاعة للقراءة والكتابة والفنون المسرحية.
وهنالك ايضاً محترفات العلاج الانشغالي Ateliers d'Ergothérapie من حياكة البرادي والمماسح، تصليح وتقشيش الكراسي، صناعة سلل وصواني الخيزران، صنع الادوات الخشبية وتجميع مصفايات البويا وهي من الكرتون، نول المسامير لحياكة الشالات وأغطية الاسّرة وحرامات الاطفال بالاضافة الى شغل الصنارتين والكانفا، الرسم على الزجاج، الفخار والخشب وتنسيق الازهار... وقد جهزت لهذه العلاجات قاعات حديثة متعددة.
هدف هذه العلاجات هو جعل المريض قادر على الاعتماد على نفسه كما تساعده على زيادة الوعي الذاتي وتقدير الذات وتهدف أيضاً إلى بناء المهارات الاجتماعية، زيادة مهارات التأقلم وتدفع المريض للتعبير عن احاسيسه وانفعالاته، وساوسه وشكوكه، كآبته وفرحه...
إضافة إلى الأهمية العلاجية لهذه النشاطات فهي تسمح للمعالجين بمتابعة المريض في مختلف مراحل مرضه قبل الشفاء، وهي مكملة للعلاجات الطبية والعلاجات النفسية.
إن المحترفات الفنية والانشغالية هي صورة مصغّرة عن العالم الخارجي تحضّر لإعادة اندماج المريض في العائلة والمجتمع.